من وحي النبوة

المقدمة

((قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ;وَيَسّرْ لي أَمْري; َواحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ;يَفْقَهُوا قَوْلِي)).

الخطاب أداة توصيل تتولى نقل المضامين الفكرية، والسياسية، والمشاعرية من المعطي (الخطيب) إلى المتلقي (المخاطَب)، وما من حركة سياسية، أو ثورة جماهيرية، أو دولة قوية إلا ولها خطيب يتولى طرح أهدافها، وتحديد آليات تحقيقها ويحذر من الأخطار المحدقة بها.
لحظة الخطاب هي لحظة الكلام التي تمنح المعطي قوة التأثير في المتلقي، ومَلَكة النفوذ إلى عمقه، ويشعر معها أنه بقدر ما ينطلق من عمقه كخطيب سينفذ إلى عمق المتلقي كمخاطَب، ولا يتأتّى له ذلك ما لم يتمتع بوعي مركب، وعي المبادئ التي يدعو لها.. الواقع الذي يحيط بشعبه.. المخاطر المحدقة به.. الطموحات التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج التي تتكفل بإحداث النقلة النوعية المنشودة، وكذلك وعي البنيوية الخطابية التي تمتزج فيها مفردات اللغة بدقة المفاهيم، وصدق المشاعر باتجاه التقارب الجادّ لأحاسيس الناس.
العطاء والأخذ كمادة للتداول، والمعطي والمتلقي كأطراف للتداول، لا يُشكّل ذلك بقرار، أي حين يجالس الإنسان مَن هو أكثر منه ثقافة وأسبق تربية، لاشك أنه أمام واقع التلقي، إذ لا يوجد مُعطٍ مطلق ودائم ومُتلقٍ مطلق ودائم؛ لأننا لسنا معصومين أو ملائكة، إنما هي نسبية تحكم الطرفين..

هذه الخطب أفرزتها معاناة مستوحاة من عذابات إنسان العراق والعالم، وصاغتها طموحات الإنسان ذاته، وحددت اتجاهها إرادة الإنسان المعطي؛ لذا كانت مرتجلة دونما تحضير مسبق أو زخرفة متكلفة تظهر فيها الصنعة الكتابية وهذا هو ديدن الدكتور ابراهيم الجعفري في كل خطبه.

مؤسسة الكتاب الثقافية

من وحي النبوة
تكريم الشخصيات الوطنية 17-2-2011

بسم الله الرحمن الرحيم
((الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)).
((والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)).

هذا المقطع القرآني الكريم يحدد لنا أن الرسالات السماوية عبر من حملها من الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ركزت على هذه العناصر الرئيسية الثلاثة: الإيمان بالله (تبارك وتعالى)، والتوحيد الحقيقي والتبشير، والانطلاق بالإنسان إلى نقطة النهاية، وهو المعاد والنظر إلى الآخرة والغيب وعدم الأسر بالمادة.

العنصر الوسيط الذي يحمل هذه الرسالة هم الأنبياء؛ وكان تعاقبهم لإتمام الأشواط في طريق التكامل الإنساني الذي بدأه السابقون (صلوات الله وسلامه عليهم).. الإيمان بالغيب هو نقطة الافتراق الحقيقية بين ركب المؤمن وركب المُلحد.. ذلك الإلحاد الذي عصف منذ وقت مبكر من بدايات التاريخ الذي حاول أن يأسر الإنسان في حواسه وبدنه، ويحجبه عن الحياة الحقيقية وهي الآخرة، وجعل الإنسان أسير حسه، وحبيس بدنه، حين نقول تماشياً مع السياق القرآني في سورة البقرة:
((الذين يؤمنون بالغيب)).

أول علامة للمؤمن هي الإيمان بالغيب بكل ما حمل هذا المفهوم من حمولة تعددت في مصاديقها سواء كان الغيب غيباً نسبياً أم كان غيباً مطلقاً؛ لذا يشرفنا أن نتحدث باسم الغيب؛ لأن الغيب يهبنا طاقة خلاقة تتجاوز قدرات البدن، وقد يعجز الذين أسرتهم المادة عن تفسير الكثير من تضحيات الأبطال في سوح الوغى، وفي المواجهة في ميادين القتال، وكيف ينبري هؤلاء الأبطال، ويقدمون كل ما لديهم لا لشيء إلا لأنهم تحرروا من أسر البدن، وانطلقوا من وحي الغيب والغيب المطلق وهو الله (تبارك وتعالى)، ونيل رضوانه، والآية القرانية الكريمة ما إن أشارت من المنطلق من الغيب ألا وأثنت على الذين يقيمون الصلاة.. وهذه هي الصلة بالله (تبارك وتعالى).

العنصر الثاني والأساسي وهو الارتباط بالله، وجعله ارتباطاً واقعيا ينعكس على العلاقة بالناس، وتمسي حياة الناس حياة عامرة بالحب وعامرة بالفكر، يركز القرآن الكريم على إقامة الصلاة، وليس مجرد أداء؛ لأنها تجسد فلسفة الديانات عن خلقة الإنسان، الإنسان الروح والفكر والسلوك ومن ثم يتحرك على محور الغيب، وينوي الصلاة، ثم ينطلق ذاكراً، ويردد ألفاظاً؛ ليركز شخصيته، ويؤكدها على مستوى الفكر، ثم ينحني ركوعاً او سجوداً وكأنه يقول: هذا البدن بكل حركاته طوع إرادة الله

(تبارك وتعالى)، بعد أن تحدد لنا الصلاة علاقة الإنسان بالله، وكيف تنعكس على الناس طرح شعار:
((ومما رزقناهم ينفقون)).

هذا هو الإيمان الحقيقي هو أنك تمشي وتنفق فكراً إذا كنت عالماً حقيقياً، ومالاً إذا كنت مالكاً بالحلال، وخطيباً ومتحدثاً إذا كنت مثقفاً، ووسيطاً لفظ النزاعات إذا كنت وجيهاً ومُحِباً للناس إذا كان قلبك عامراً بالإيمان الحقيقي.. لا إيمان بدون حب، هكذا يمشي الإنسان وهكذا ينبغي أن يكون شعاره.. ينفق، ويعطي الآخرين:
((وبالآخرة هم يوقنون)).

انتقل من الإيمان إلى اليقين، لم يكتفِ القرآن الكريم بأن يحدد لنا مفهوم الإيمان إنما جعل مسألة النظر إلى الآخرة ليست مسألة إيمان، فالإيمان أعلى من الإسلام، واليقين أعلى من الإيمان، وما من شيء أعلى من اليقين، ولابد أن يتيقن الإنسان بأن هناك حياة هي حياة الآخرة، وبمقدار ما ينطلق الإنسان من وعي نقطة النهاية في الطريق يرسم معالم مسيرته في اول الطريق الذين يعون الطريق في نهايته، ويتفننون، ويبدعون، وهم يمضون بالطريق، وإذا أغلقت عليهم الأبواب يجدون أكثر من خيار؛ لأنهم وعوا الطريق.. هذه كلمة سريعة كمدخل للآية القرآنية الكريمة الشريفة.

أما حين نتحدث عن الوحدة فإن الوحدة في القرآن الكريم لم تطرح على أساس أنها تلغي الآخر، فالآخر في حياتنا شيء لا يتجزأ، والحياة التي لا آخر فيها حياة وحشة.. الآخر موجود في المجتمع، والآخر في العقيدة، والآخر في المذهب، والآخر في الاجتماع والسياسة، والآخر في البيت في الحياة الزوجية، والآخر في داخلكم ، وفي داخل كل واحد منا هنا آخر.. هناك فرق بين الإنسان اليوم وإنسان العام الماضي، بل حتى مركب الجسم كان يحمل فكراً غير هذا الفكر، يختلف ولو من حيث الكم إن لم يكن يختلف من حيث الوجهة، إذن الآخر موجود وإلا بماذا نفسّر قول الإمام علي (صلوات الله وسلامه عليه):
(من تساوى يوماه فهو مغبون)

لا ينبغي أن تكون اليوم كما أنت بالأمس، ولا ينبغي أن تسكت عن يومك، وتجمّد حركتك..
لماذا يوجد الآخر في حياتنا؟ .. يقول الله (تبارك وتعالى):
((إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...)).

هذا الآخر الجنسي، هل تستطيعون أن تتصوروا رجلاً من دون امرأة، أو امرأة من دون رجل باستثناء المسيح (عليه السلام) الذي جاء بمعجزة، أما الآخرون فكلهم من رجل وامرأة:
((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)).

أي جعلناكم مختلفين، متعددين، لتعارفوا، وليس لتتحاربوا، لا للتتناكفوا، وتتناكدوا، وتتشاجروا.. إنما تزدان الحياة عندما نجد أن البشرية فيها ألوان، وفيها أنواع متعددة تجيد فن المشترك الإنساني، هذا المشترك الإنساني يجعل من كل قسم متمماً للآخر، ويمشي باتجاه التكامل.. هذا الاختلاف جعله الله (تبارك وتعالى)، بيننا، وأمرنا أن نحقق وحدة ليست وحدة مسخ الآخر، وإزالته:
((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم....)).

لم يقل بين عقولكم، لا يتصور المتلقي أن الله (تبارك وتعالى)، يريد من الإنسان أن يلغي الآخر النوعي في التفكير والمنهجية والاستنتاجات، بالعكس، إنما الإبداع كل الإبداع يكمن في أنا نعطي العقل حقاً وفضاءً واسعاً؛ ليتفاعل، إذن التنوع بصمة وجودية في هذا العالم، وحين نتحدث عن الوحدة نتحدث عن وحدة القلب.. عن المشاعر.. عن الحب، ولا ينبغي أن نحب، ونكره في آن واحد، نحب من يستحق الحب، أما أن نختلف مع الآخر، ونتعامل على الرغم من الاختلاف فهذه هي الحكمة. الحكمة أن نجيد فن التعامل مع وجود الاختلاف.

دارت رحى الحرب العالمية الأولى والثانية، وأنا أعجب لماذا تسمى الحرب العالمية، الأصح أن تسمى الحرب الأوروبية، وقد دخلت استثناءً أميركا في صفحات الحرب العالمية الثانية متأخرة في 1941/12/7 عندما ضربت اليابان ميناء (بيرل هاربر)، فالحرب حرب أوروبية.. ماذا كان دين هتلر وموسيليني كلاهما كانا كاثوليكيين، فهل من الصواب أن نسقط الكاثوليكية لأن هتلر كان كاثولوكياً ولم تسقط الكاثوليكية كفكر والكاثوليكيين كأمة انتشرت في أكثر من بلد من بلدان العالم، ولا ينبغي أن نسقطهم بسبب جريرة هتلر أو موسوليني، ونحن - المسلمين - كذلك نتعرض لبعض المجرمين الذين حملوا اسم الإسلام، ونحن اكتوينا بنار دكتاتورياتهم ومآسيهم وجرائمهم ودونكم الصفحات السوداء التي سجلها صدام طيلة مدة حكمه التي امتدت إلى ثلاثة عقود ونصف من الزمن، وما ترك جريمة ألا وارتكبها، هل هذا يعني أن نختزل العراق فيه، أو نختزل الإسلام فيه، أو نختزل (تكريت) فيه.

لم يكن أبو لهب عنوان مكة بل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنوان مكة، ونحن نعيش وإياكم ذكرى مولده الشريف، هذه الانعطافة التي انفتحت فيها السماء على الأرض؛ لتغمرها بالحب الذي حمله قلب رسول (الله صلى الله عليه وآله وسلم)، هو الكمال الإنساني بعد أن مرّت البشرية بعدة أشواط، اليهودية وما عبّر عنها موسى (عليه السلام)، والمسيحية وما عبّر عنها المسيح (عليه السلام)؛ لتأتي الأمة الإسلامية خاتمة الأمم ويعبّر عنها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان قلبه يتسع لكل الناس يوم ضاقت به مكة بما رحبت، وطاردت، وتعقبت أصحابه، أشار بيده الشريفة بأن يذهبوا إلى الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد إلى

النجاشي، وهو نصراني، هذا هو الجوار الفكري، وهذا هو الانتماء الفكري، وهذه هي الأولويات الفكرية.

يجب أن نطارد الظلم والظالمين، هذه هي المعركة الحقيقية، وليست معركة الأديان والمذاهب والاتجاهات السياسية والمكونات الاجتماعية فهذه معارك موهومة.. المعركة الحقيقية مع الإرهاب ومختلف أنواع الفساد.

اليوم نعيش ثورات الشعوب تأبى إلا أن تنقض على النظام، وتبدله بنظام، كأنها على موعد تراكمت فيها عوامل السخط، وتفجّرت على شكل ثورات، واجتاحت تونس واليوم في مصر وغداً ما بعد مصر، جيل بأكمله يفتح عينيه فلا يجد إلا رئيساً واحداً منهم من مضى عليه ثلاثون سنة، ومنهم ثلاث وثلاثون سنة، والثالث ثلاث وعشرون سنة، والرابع اثنتان وأربعون سنة، برئيس إلى الأبد ورئاسات وراثية.

التجربة في العراق على الرغم مما عليها من ملاحظات منذ عام 2003 حتى الآن تعاقبت على حكمها سلسلة حكام، وشهدت فصولاً انتخابية متعددة في السنة الأولى كان الاحتلال يمشي على الأرض بحجم أكبر مما هو عليه الآن، ثم تعاقب ستة من الحكام في مجلس الحكم، ثم جاءت الحكومة المؤقتة ثم الانتقالية ثم الحكومة الأخيرة.

الشعب العراقي يرى أنه بنفسه يصنع وينظر إلى من هو الكفوء، وعليه أن يعد العدة في كل جولة انتخابية على ما تفرزه الجولة الانتخابية السابقة، والتظاهرة كتظاهرة لابد أن تشق طريقها إلى الشارع، ولابد أن تصدح، وتقول هذا حق إسلامي، وحق إنساني، ما الضير في ذلك، لكن يجب أن تكون من الشعب وبواسطة الشعب وبخدمة الشعب، عندما تمشي التظاهرة بهذا الطريق يجب أن نشجع عليها، ونلقي الضوء عليها، ونؤمّن لها حقوقها، ونكون أمناء على الدستور؛ لأن حق التعبير في التظاهرات هو حق كفله الدستور، ولا ضير في ذلك، مع ذكرى ولادة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويجب أن نعيش رسول الله كذكرى عاطفية وفكرية غير مفصولة عن السلوك والتطبيق العملي وإشاعة هذه السنة، ونبثها في أجوائنا، ويجب أن نعيد النظر في طريقة علاقاتنا مع أزواجنا وأبنائنا وبناتنا ومع كل من حولنا ونسأل: هل نعيش كما كان يعيش رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهل نتعامل مع أزواجنا كما يتعامل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع أزواجه..

رسول الله ليس حقيقة تاريخية معزولة عن الحاضر، ومشلولة عن أن تستمر إلى المستقبل، من يقرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى وإن لم يكن مسلماً سيجد فيه عقل الكل كما يقول أحد الفلاسفة، سقراط: (عقل وقلب يتسع لكل الناس) يتسع لليهودي الذي كان يرمي عليه جمراً، ومع ذلك عندما مرض عاده، من يُرِد أن يحيي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويطبّق الآية القرآنية الكريمة:
((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)).

نحن في مرحلة تأسيس الدولة العراقية، التي ولدت بإرادة وطنية عراقية، نعم.. اختلط العامل الدولي بالعامل الوطني فيها، لكن لا يخدعنكم أحد أن المعركة العسكرية التي حصلت أو ما يسمى بحرب الخليج الثالثة هي التي ولدت الديمقراطية، لا تشتبهوا، فلو كان الشعب العراقي مؤمناً بالنظام المقبور لحوّل العراق إلى مقبرة لكل من يدخل العراق.

الشعب العراقي رفض النظام المقبور قبل أن تندلع حرب الخليج الأولى والحرب الثانية والحرب الثالثة، وإلا بماذا نفسّر سلسلة الشهداء الذين تعاقبوا مع تعاقب الزمن كشهداء حزب الدعوة الإسلامية في 1974، وقبضة الهدى، الحرب الأولى مع من حصلت، الحرب العراقية - الإيرانية، من 1980 -1988، وحرب الخليج الثانية في الكويت في 1991، والحرب الثالثة عام 2003،.

حصلت حرب الخليج الأولى والعراقيون يواصلون نظالهم ضد الدكتاتور، وانتهت حرب الخليج الأولى والشعب العراقي يواصل نضاله، وبدأت حرب الخليج الثانية والشعب العراقي يواصل النضال، وبدأت حرب الخليج الثالثة وإلى اليوم يواصل، وما حصل ولادة وإن كانت عسيرة، لكنها بكل تأكيد كانت بإرادة وطنية عراقية، حتى اليوم إعلامنا ليس حيادياً، ويتحدث عن الدكتاتورية، ويذهب وراء التاريخ، ويذكر هتلر وموسوليني ونادر شاه، ويذكر ستالين، ولا يذكر صدام دكتاتوراً معاصراً.

تعلمون جيداً.. أن زين العابدين بن علي ارتكب جرائم، لكن خدم شعبه، فقد كان دخل الفرد يصل لنحو أربعة آلاف دولار في تونس، وحكم ثلاثاً وعشرين سنة، وارتكب جرائم لكن لا تقارن بالجرائم التي ارتكبها صدام، وأروع شيء في الشارع التونسي أنه صدح بصوت الثورة، ورفض الدكتاتورية، لكن الدكتاتورية لا تجزأ مثلما الانتماء الوطني كذلك هو الاخر لا يجزأ، وعندما نرفض الدكتاتورية يجب أن نرفضها بالتاريخ ونرفضها بالحاضر، ونرفضها بالأفق الجغرافي في هذا البلد، وفي ذلك البلد؛ لأنها آفة ضد الإنسانية، فلا ينبغي أن نجزّئ، وما حصل في مصر يذكرني بالانتفاضة المصرية الباسلة في زمن سعد زغلول ضد الإنكليز، وثورة الجياع وثورة الطحين والخبز، وسلسلة ثورات، لكن هل من أحد يسأل نفسه: لماذا لم يذكر أحد الثورات والانتفاضات التي تعاقبت في العراق؟.

350 ألف شخص يُدفنون وهم أحياء نساءً ورجالاً، ويموتون كمداً بالحفر، ويوارى عليهم التراب، والعالم ساكت، وفي حلبجة أكثر من أربعة آلاف شهيد، والعالم ساكت، هل هناك فرق بين الطفل العراقي والطفل التونسي والطفل الليبي.. هل هناك فرق في البطولة والشهداء.. هل هناك فرق بين عمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، وعبد القادر الحسيني في الجزائر، وبقية الأبطال وقادة الثورة في كل مكان.. فلماذا لا يذكرون محمد باقر الصدر، ما العيب في ذلك، وهو رجل

يتربّع على عرش المعرفة، وينطلق من العراق؛ ليخاطب العالم والفكر الآخر، هل هذا هو جزاء الإنسان المفكر، يعيش في بلد يقتله طاغيته، ولا يرف لأحد جفن؟، وتقتل أخته وكذلك الصدر الثاني، وسيل من الشهداء في كل مكان.

الدولة العراقية الجديدة دولة مواطنة، وليست الحكومة إلا مؤسسة من مؤسسات الدولة، بخاموسها المعروف، (شعب وسيادة وأرض ودستور وحكومة)، ونحن عازمون على أن نقيم دولة عراقية جديدة ذات سيادة ودستور، والمواطنون كلهم يشكلون هذا الكلي المجتمعي العراقي، من دون أي فرق بين أحد وآخر.

لا أقول إننا وصلنا إلى ما نطمح إليه، ووصلنا إلى القمة، لكننا لسنا في الوادي، إنما نتدرج على السفح، ونصعد، وكلما زادت ثقافة المساواة والتكافؤ سنلغي جميع الفوارق، وقل مثل ذلك في حرية التعبير عن الرأي، والأمر نفسه في مؤسسات المجتمع المدني التي مورست في تاريخنا، وإن لم تكن بهذا الاسم سواء كان على نظرية (لوك) أو (هوبز) أو (غرامبشي).

ماذا يعني المسجد، ماذا يعني الجامع في الثقافة الإسلامية؟ يعني أنه يجمع الناس، ويحل مشاكلهم، ويبلغهم، ويفض النزاع بينهم، ويعمل عقود زواج ويتفقد الفقير.

العراق الجديد يريد أن يضاهي كبرى دول العالم؛ حتى يلتحق بحاضره بما كان يتنعم به تاريخه، لكن لا يكفي أن يكون لنا تاريخ، ونتغنى به فقط، إنما التاريخ مسؤولية ويذكرنا أن نحافظ على ذلك الموضع على تخوم الحضارة، وينبغي أن نحوّله إلى قوة من السابق إلى الحاضر، وننطلق إلى المستقبل من خلال قوة الاقتصاد ورفع مستوى الخدمات، واحترام التعددية الموجودة، واحترام الإنسان؛ حتى تختفي مظاهر التمييز.

من وحي ذكرى ولادة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أقول: إن قيم السماء التي حملها خيرة البشر جديرة بأن تصنع بيننا وحدة مادامت تنطلق من القلب، ولو سألت أي نبي: ماذا تريد، وبماذا جئت؟ لقال لك: جئت لصناعة الإنسان ولتربية الإنسان، هذه هي المهمة الحقيقية.

يجب على الإنسان أن يتربى على قيم الخير؛ حتى يهزم الفساد بكل ألوانه ويحقق العدل، ويكافح الإرهاب وهدر الدم، وحتى تعيش الأسرة البشرية في العراق بدياناتها المختلفة، وبمذاهبها وقومياتها واتجاهاتها السياسية مستوحية ومستمدة ذلك من قيم رسول الله.. عندئذ يحق لنا أن نقول: نحن نحيي ذكرى رسول (الله صلى الله عليه وآله وسلم).
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.